

في المارستان

بقلم الأستاذ محمد عبد الكريم

”ينتقل اليوم طلبة المعهد الجنائي والمحامون تحت التمرين صحبة أستاذهم الدكتور محجوب ثابت لزيارة مستشفى الأمراض العقلية بالعباسية“ .

ولم أكد أطلع على هذا النبأ حتى أُلقيت بالصحيفة جانبا وغادرت مكنتي مهرولا إلى الخارج وراع زميل ما شهد على من تغير فعدا خلقى يسألني ما الخطب ، قلت خيرا ، قال ” ولم تعد و إذن والى أين أنت منطلق ؟ “ قلت الى مستشفى الأمراض العقلية ... الى المارستان ! .

تقدموا يرافق :

وسار الدكتور محجوب ثابت الذي لا قانا عند مدخل المستشفى بالعباسية وسمنا جميعا حوله حتى اذا لمخني مديده فأخرجني من بين الجمع وقدمني الى الزائرين قائلا ” لقد قدر أن ترافقا صحيفة الشؤون الاجتماعية في جولتنا اليوم بين العقلاء “ . قلت ” تقصدها جولة العقلاء بين المرضى النساء “ وهنا رأيت الدكتور يهبط بهواد جيئه الى مثلته ويرتق بانجاد لحينه الوقورة حتى شاربيه . ثم يقول وهو يتخلل بأصابعه أهداب خصلة خلاها الشيب : ” لقد أخطأت يا عبد الكريم وأمعنت واجترأت واقترت . إنما يا بني جولة النساء بين السعداء — لقد سعدوا باعتزال عالمكم ونعموا بالبعد عنكم “ .

ولاقانا مدير مستشفيات الأمراض العقلية الدكتور الخول بك أجمل لقاء ومضى يطلعا من أمر المستشفى وتاريخه والمرض وأعراضه وأسبابه .

وتقدم الدكتور رفعت المازني الذي تكفل بمصاحبتنا الى أحد الأبواب ففتحه فاذا بنا نواجه حيشا كبيرا من هؤلاء المساكين الذين كتب عليهم الشقاء فذهبت الأحداث بأحلامهم ، شيوخ وشبان ليس ببياتهم ولا في أحوالهم ما يفرقهم عن غيرهم سوى ما يراه المتأمل في رؤوسهم المطرقة أو عيونهم المحدقة من شرود وجهود ووقفت في القوم بين مقدم ومخيم أقدم رجلا واؤخر أخرى ، وكيف آمن الأذى وأنا بين من فقدوا شعورهم وأفتروا قوادسهم ؟ غير أن خوفى سرعان ما تلاشى حين رأيت الزوار يسرون في غير مبالاة ، هانحن نتوسط البرلاء النساء إنهم يتقاطرون علينا من كل صوب مهللين مكبرين في جلبة يضح بها المكان . هذا يتمبل مسرعا رافعا يده بالتحية ، وذلك يقف جامدا في خوف وارتياب ، وثالث يهول بين جماعة تهتف معه باسم الزعماء الكرام والأبطال النظام “ ودنا

منى شاب من النزلاء يسألني من يكون الزوار ، قلت وأنا أتراجع خطوة بعد خطوة "طلبية .
ومحامون" فيتساءل النزيل الكريم في ثبات "وليه ما غيرتوش هدومكم وليستوا زينا ما دام
حا تفضلوا معنا" .

واخترق الصفوف نزيل تقدم في تعاطف إلى الدكتور محجوب يطره وابلا من الأسئلة
والانتقادات في ثبات وتعقل أدهشنا أن نجدهما في هذا المكان . فقال : " ما شاء الله
يادكتور . كل يوم جايب لنا شوية عيال وجى . إحنا فرجه ولا إيه " ثم تابع قوله وحسو
يربت على كتف الدكتور " لكن انت ازاي بتشتغل لغاية دلوقت ... انتة مغالطهم في العمر
والا الحكومة ناسياك .. والله شبت وبان عليك العجز يا ابني يا محجوب .. فين أيام مسجد
وصيف وفين البيه وفين حمارة مكسوي وفين العمال وزعامة العهل... الله يرحم أيام زمان" .

وهنا حضر الطعام وكان من الفول المدمس المختلط بفتات الخبز . وما أن رأى محدثنا
الززين الخادم يحمله حتى هجم عليه واختطف وعاءه في لطفة ثم افترش الأرض ممسكا بأحدنا
ومصرا على أن يشاركه طعامه . وإذا اعتذر الرائرثر النزيل وهاج وكاد يسقط الزائر لولا أن
خلصه الحارس من قبضته وعزل المريض . ومن ركن من أركان العناء سارع إلينا شيخ من
النزلاء رافعا يمينه وممسكا قصاصة صحيفة بالية يسراه وهو يصيح : فقوا فيلا . اسمعوا وعوا .
وإذا وعيم فانتظوا ... إنيكم قصيدة ... قصيدة مجيدة " وهاج الجميع وماجوا ولكن صاحبنا
غطى بصوته المدوى عليهم . ومضى ينشدنا صائحا :

قل للوفود التي نهوى تدانها الدار يسعدنا أن تمكثوا فيها

وإذ خشينا أن تشيع الدعوة بين المضيفين فيلزمونا نزلا غير أمين بارحنا المكان مولين
مسرعين ، وأكثر نزلاء هذا القسم من المصابين بضعف عقلي ورأى Mental defect . وبينهم
مرضى يسود بعضهم الحزن ويملو البعض مرورين . وهم مصابون بما يسمى لونة المرح
والاكتئاب Manic - Depressive .

وفي مكان مجاور مررتنا بمحجرات العزل (لزنانات) وهي تضم أتعس المرضى أجمعين
من اشتد هياجهم حتى أصبحوا خطرا على أنفسهم وصل غيرهم . والزنانة حجرة ضيقة يوضع
بها المريض يملوها مصباح يحاط بشبكة حديدية ولها باب محكم به فتحة صغيرة يغطيها منظار
ثابت من الزجاج ليرى الحارس ما عليه المريض . ومكان هؤلاء المرضى يدوى صياحا ويمتلئ
هياجا : هذا يناهى نفسه وذلك يتدب هاذيا حظه . وقد استرق سمعى خطاب بليغ مر كلام
المنشوطى كان يردده أحد المرضى في صوت مؤثر يستدر الزناء والاشفاق قد جاء في حاتمته
" فيا أيها السعداء أعيونا التمساء وساعدوا البؤساء . ارحموا من في الأرض يرحمكم من
في السماء" . ويميل أكثر نزلاء الأفيية أن نزع ملابسهم . ويعلل مراقبا الدكتور المنزلي بث هذا
بأنهم يشعرون بالدفء ولعل خلع ملابسهم راجع إلى عامل نفساني هو تمثيل محاولة التخلص
من وضعهم الال إلى أن من ذكر الحادث الذي أودى بحقولهم في صورة نزع الملابس والتخلص

من القيود. وأكثر هؤلاء مصابون بما يسمى Paranoia ومن أعراضه لحياج الشديد والصحب والبرسة البصرية والسمعية - والخلوسة هي تصور أشياء لا وجود لها فترى المريض يتحدث إلى الفضاء أو يجيب ويناقش كلاما غير حادث .

عقلاء في ثياب المجانين :

ولعل أكثر ما يستدر الرحمة ويدعو إلى الاشفاق ، هذا الفريق العس من العقلاء ممن اغموا في هذه المكان اطارى عرض ، أو من تكون نوياتهم قد زالت ونكتها محتملة التكرر والحدوث . هؤلاء كما رأيناهم عقلاء لا نقص فيهم . تراهم هذين مسلمين ، تحدثهم فيحدثونك في نعقل وثبات . لا يقينهم وتحدثنا اليهم فما شعرنا بأى فرق . هذا مزارع كان عمدة لبلدته وله ضيعة يروى لك حياته في يقظة واطمئنان ويرجع أسباب ادخاله المستشفى إلى جشع ذويه الذين أرادوا من اتهامه بانه أن يحجروا على ماله ليقتنعوا به . وذلك علام صغير يحدثك في هدوء عن أمره فيعزو إدخاله المستشفى إلى حتى أصابته فأذهنته وقد ذكر لنا اسمه واسم مدرسته التي يتعلم بها واسم أبيه وعنوانه . على أن نجف ما امتنعت بنظرنا شاب حسن البزة . مرتعد الشعر وقد جلس إلى سرير يرقب دقرا بن يديه . حيزت انشاب فينا في أدب واستحياء ثم دوت وللدكتور محبوب منه نستطاع أمره ونقاب ما بيديه ونظام فبأ كتب صورة نفسه . فلذا نحن حياي شاب ذكي بل وبالغ في الذكاء . هذه قصة من تأليفه تفرؤه فتعجب كيف يحشر هذا المسكين بين المجانين . أسلوب قوى وتصوير راجح في عبارات لغة الإحكام . وإذا سألنا الشاب عما أتى به إلى هذا المكان أخبرنا أنه كان طالبا بمعهد عال وأنه بعناية اخوان السوء استمروا القسدا فضيق والده وهو رجل فضل معروف الخفافى على والده ليتمتع عن المكر أو يمنع المكر عنه فكان أن انفجر الشاب وأتى على لا يصدر عن ذى حم مما أزم الأرب حمل ابنه إلى هذا المكان .

في حضرة الامبراطور :

وفي مكان آخر شامدا بجانبنا من المرضى استوقفنا فيهم شيخ توج هاتمه بوضع ريشات وقد وضع يديه خط ظهوره . أنشدونا منه حتى انهلل علينا لومعا . وتقرى ما . ازاي جيت هنا من غير إذن وازاي يا جمع . انتم (وأشار إلى الدكتور المسكين) ازاي سمحت لهم بالدخول في السراى من غير إذن منا . وناب بالدكتور محبوب عنا في تقديم الاعتذار لسمو الامبراطور واستدرك الدكتور المازنى الموقف قائلا "إن الرغبة في خدمتكم يا مولانا لتدعيم فيوض الطلحة لسدة الكرامة . وهنا تنازل الامبراطور بإعلاء ارضا ودعانا لا تراض الأرض فاعتذرنا شاكرين وإعدين بالعودة للشرف بالمقالة السامية في فرصة أخرى .

ومرضى هذا النوع مصابون بما يسمى مرضى الزهو-Paranoia

وإن من أشد ما شاهدنا إيلا ما للنفس، ووعيم سوداوى كبير، كان من خيرة رجال وادى النيل ولكن ما لأصابه فى كفلحه لوطنه ناء فقله دون اجتهاله . سالنا للسيد عن حاله فحدثنا فى شبات يشوبه بعض النحول إنه بغيره وأبلان ارتياحه لما يلقاه من موظفى المستشفى من العناية وذكر أنه لا يجب أن يجذب ذلك فى مصر التى يرى فيها جزءا من وطنه العزيز .

وفى مكان آخر شاهدنا بعض المرضى من صحايا الخدرات والمنسكرات كما رأينا بعض صحايا ضربات الحياة من تاجر أودى إفلاسه بعقله أو موظف ذهب برشده فقدم ما به هدته ، ومنهم عدد من صحايا الإفراط الجنسى من تبين حالهم من حديثهم لذى لا يدور إلا عن المرأة وعا ما يكونه أو يضره لى من حب أو بغض . وبين المرضى بعض مجازين السجن Prison Sycophants ممن ذهب شدة المعاملة بالسجون بعقولهم . كما وأن فيهم عددا من صحايا البلاجر الناشئة من سوء التغذية وأكثر مرضى البلاجر يقيمون بمستشفى الخانقاه . هذا الى مرضى الجنون الاختلاطى المتسبب من أمراض الزهري والسل والحجيات والشيخوخة وتصلب الشرايين .

فى قسم النساء :

وانتقلنا الى الجناح الآخر من المستشفى وهو قسم النساء . ويضم هذا القسم نيفا وألف مريضة منشرات فى مبانيه المتناثرة ولا يكاد يختلف حاضن عن حال نظرائهن من الرجال من حيث الأسباب والأعراض ، سوى أن بينهن عددا من المصابات بالجنون الاختلاطى وهو الجنون المتسبب من السموم الداخلىة من الحمل ووضع والأمراض الحبيثة . وبينهن أيضا عدد من صحايا الفشل فى الحملات الزوجية الناتجة عن البتل الطويل أو سوء مهاملة الزوج أو غير ذلك . وقد شاهدنا سيده ممسكة بمسكة بهزمة من القمش تكتمس بها الأرض دون أن يكون على الأرض ما يكتمس . وعلما أنها متناثرة على هذا العمل والتعليل السيكولوجى لعملها أنها تكبت ذكرى بغيضة لحادث تريد أن تحسوه فتتمثل ما يسببها بالتراب لذى تعمل على إبعاده وكتمسه .

الأمراض العقلية فى مصر وأسباب تلافيا وعلاجها :

إذا راعينا أن النسبة المثوية المقدرة للاصابات بالجنون هى أربعة فى الألف من السكان عامة وجدنا أننا فى حاجة الى مستشفيات تسع لسبعين ألف مريض فإذا أضفنا الى ذلك أثر سوء حالة الشعب الاقتصادية وما تسببه من أمراض كالبللجرا والسل والتعرض للأمراض الحبيثة مما له أثر فى مضاعفة عدد مرضى العقول وجدنا أن لدينا ما لا يقل عن مائة وعشرين ألف مجنون فى حين أن مستشفيات الحكومة بالعباسية والخانقاه لا يتسعان لأكثر من ٣٥٠٠ مريض - وضيق المستشفيات عامة ومستشفيات الأمراض العناية خاصة ظاهرة غريبة

في هذا البلد ولطافاً نادى المصلحون بوجود مضاعفة عدد المستشفيات والعمل على إكثار من الأطباء إذ المفروض أن يكون لكل ألف ساكن طبيب أى أنه يلزمنا سبعة عشر ألف طبيب في حين أن عدد لأطباء لا يتجاوز الأربعة آلاف - أما عن أطباء العقل فهم من القلة بمكان - ونحن لا نرى غضاضة فيما إذا كان توسيع المستشفيات يتوقف على زيادة الأطباء - لا نرى غضاضة في أن نسمين بأطباء أجناب حتى يأتي اليوم الذي يتوفر فيه العدد اللازم من المصريين . أما مستشفيات الأمراض العقلية فقد بحت الأصوات في المطالبة بتوسيعها وقد سبق - أن نادى الدكتور وارنوك الذي كان مديراً للأمراض العقلية بمصر بوجود توسيع المستشفيات وإنشاء مستشفياتين واحد بالاسكندرية وآخر بأسيوط وقد مضى على هذا التطب أكثر من خمس وعشرين سنة دون أن يهتم بتنفيذه رغم تضاعف عدد المرضى اليوم عن ذي قبل - هذا عن العلاج أما الوقاية وهما دوماً المكان الأول فلا سبيل إليها إلا بعلاج أدوائنا لاجتماعية الكبرى : الفقر والمرض والجهل فالبلاجرا الناشئة من سوء التغذية تسبب إصابة عدد كبير من نرؤء لمستشفيات العقلية وجنون البلاجرا من أخطر أنواع الجنون إذ ثبت إن بين كل ١٥٠ قاتلاً بمجموعاً ثمانية مصابين بالبلاجرا . كذلك كان الفقر من أقوى مسببات الجنون لما يخففه صيق سبل العيش في وجوه الشباب من إجمام عن الزواج وتعرض للأمراض السرية التي لها أثر ورأى في الدم وفي المع هذا إلى تعرضهم للتشرد الجنسي وادمان المسكر والخمدر وتفاقم مشكلتي الطلاق وتعدد الزوجات والارهاق البدني والتدهنى لتحصيل الرزق وسوء الحالة الصحية بالمصانع وصخب المدن المنضى للأعصاب والجهل الفاشي والمعتقدات الخاطئة التي تبعد الناس عن جادة العلاج القويم كل هؤلاء مشكلات تؤدي إلى المرض العقلي ولا مناص لتخفيف وطأته من الاهتمام بمحلها وملاجها .

آراء لخير مرضى العقول :

آفة التشريع في هذا البلد أننا حين نلتمس نقصا تسارع إلى سن قانون شرفيه سيف العقاب على رقب الناس قبل أن نهي لهم سبيل الخلاص مما يوقع تحت طائلة العقاب - فقد أصدرنا مثلاً قانون تحريم التسول ومضينا في تنفيذه قبل أن نصد للعاجزين الملاجئ الكافية التي يأوون إليها - وقد عرضنا لهذا القانون يوم أن زرنا الملاجئ وبننا . نه ما كان ينبغي أن يصدر القانون قبل إعداد الملاجئ - كذلك الحال بصدد قانون عزل المصابين بالأمراض العقلية الذي صدر أخيراً فليس يجدى أن نمرع بالعزل قبل أن نعد المعازل والمستشفيات الحاليان لا يتسعان أشعر . معشار مرضى العقول بالبلد، هذا إلى أن هذين المستشفيات مجرآن حالاً على إخراج بعض المرضى قبل اتمام ثمنائهم وغبة في اتساع المحل لمن هم في حاجة أشد وشأنهما في هذا شأن كل مستشفيات الحكومة .

ويحدر بنا قبل أن نهي هذا البحث أن توجه أنظار ولاية الأمور إلى ملاحظتين الأولى خاصة بالمرضى والأخيرة تتعلق بالموظفين قائمين بأمرهم - أما المرضى فقد لاحظنا

افتقارهم إلى عناية أكثر من حيث العلاج والطعام فالعلاج محدود جدا بل يكاد يقصر الدور على عرظهم وعلى التخفيف عنهم وللاطباء عذرهم في هذا إذا رعبنا قبة عددهم وقد قيل لى إن هناك خصا دورا يا يعمل كل سنة وكم كان ينبغي أن يعمل هذا الفحص شهريا ليكون أجدى وأنفع — كما وأن المستشفى يصرف للمرضى ذات الأطعمة العديدة التي تصرف في المستشفيات الأخرى إلا تغيير طفيف في قبيل من الحالات الخاصة وكم كان يجمل لويراعى في اختيار الأطعمة التي لها على العناصر الفعالة في علاج المرض جبدا لو أعطى كل مريض ما يتفق وحالته — وبهذه المناسبة يجدر بنا أن نشير إلى حاجة البلد إلى علاج الأمراض النفسية وإلى الاستعانة في علاج الأمراض العقلية بالعيادات النفسية والتوجيه — ذلك بأن علم النفس الحديث قد تطور في هذا العصر تطورا كبيرا وأصبح التحليل النفسي والتوجيه سبلا ناجعا لعلاج الكثير من الأمراض والعقل وخاصة في محيط حياة المدنية الصحاحية — وليس يكفي أن نقيم هذه المستشفيات أو بتعبير أصح تلك المعازل إنما نريد أن نضم هذه المستشفيات العيادات النفسية والمعامل اللازمة لها وأن نقتنى في علاج مرضانا خطى علماء النفس وأطباء العقل لتفيد من كل جديد .

وملاحظتنا الأخيرة التي نسوقها أن يقدم الأمر تتعلق بما ينبغي نحو هؤلاء الذين حملوا عبء رعاية هذا الجيش من المساكين من أطباء ومستخدمين — فالأطباء مهقون بالعمل بسبب قلةهم وحسبنا أن نذكر أن مستشفى العباسية به ستة أطباء يناط ببعضهم رعاية أمر ستمائة مريض وليس من شك في أن وقت الطبيب لن يقسع بحال لأكثر من المرور والمرافقة الصحية .

أما القائمون بخدمة المرضى من رجال وسيدات فهم أجدر الكل بالعناية فقد شاهدناهم يقاسون أشد ما يقاسى انسان في عمله وعندنا أن أولى مبادئ الانصاف أن يصرف لهؤلاء ولحضرات الأطباء أيضا بدل خطر يبادل بدل العدوى في باقى المستشفيات ذلك بأن المجهود الذى يبذله هؤلاء في عملهم والأذى الذى يتعرضون له والمشقة التي يلقونها يوميا في المواصلات دون أن توفر لهم المساكن حول مستشفاهم كل هذا يستحق الأجر والتعويض .

هذا مجمل ما رأيناه في جوليئنا ونحن لا نشك في أن ولاة الأمور سعيرون هؤلاء المرضى ومن يقوم برعايتهم ما هم جديرون به من عناية ورعاية ما

محمد عبد الكريم